الدكتور محمد مروة

الأدب المقاوم

الأدب المقاوم، فلسفة قامت ونشأت مع الظلم والإستبداد. حيث جسّدَ المستعمر البشاعة المطلقة، ولم يدرك أن الناس خُلقوا أحراراً.
وأهمية أدب المقاومة أنه سلاح يمشي في ظل البندقية، وتمشي في ظله... إنهما واحد في مشوار الصراع الأليم بين الحق والباطل، وبين الحرية والإستعباد... وهو يلتزم بمنهج وبنهج يقودان الى مواجهة دامية مع الأعداء.

الصراع اللامتناهي، والمقاومة اللامتناهية هما تاريخ الأمم المستعمرة والمكبوتة والثائرة... وربما يروق هذا المصطلح للبعض، ويرفضه البعض الآخر، وهذا ما نراه وفي صوره المتناقضة فوق الأرض العربية . لأن المثقف عندنا هو إنسان مشظّى، تائه بين عالمين: عالم الثورة والكلمة الحرة، وعالم السلطة والكلمة المزيفة... وعلى المثقف واجب التدخل في الموضوعات الحساسة والمصيرية التي تصبح بها أمته وأمم الأرض، موضوعات تهم الحياة الروحية والفكرية والإنسانية في كتابة القصيدة والرواية والقصة، وإبداع اللوحة الفنيّة، وكتابة النوتّة الموسيقية ... بهذا الإلتزام يتقرّب الكاتب والمثقف الى معاناة أهله، والى معاناة الكون ... ويُطلق عليه أحياناً " الأديب المقاوم"، أو "أدب المقاومة" . ويكون الإلتزام بهذا القهر المفروض على شعوب وأمم، وكلما كبرت دائرة القهر، كلما كبرت دائرة الأدب واتسعت، وكان الإلتزام بالأرض والوطن والإنسان...

الكون منذ وجوده، نجد في طياته صراعاً حاداً بين الخير والشر وقابين وهابيل... من هنا بدأ الصراع، ومن هنا كانت المقاومة ... وفرق كبير بين عالم المقاومة وعالم الحلم... الأول يرتقي الى مستوى الآلهة والثاني اعتبر نفسه إلهاً، لذلك قتل، وراح يتحكّم بالحياة، ويسوسها كما يريد، بإعتباره أن الأشياء خاضعة للقوّة ، أي خاضعة له...وعمل بفلسفة "الغاية تبرّر الوسيلة"... وهذا المتسلّط القاتل عمل بنظرية "أن الكون وما فيه، وما عليه وما يحتضن في

باطنه، ملكاً له، وبقدرته..." فهو يحكم على كل الموجودات وكأنه الخالق...ويجري في كل أعماله وكأنها القدر، ويمضي في إطار عمليات دعائية تغسل الفكر، وتنهي العقل والحكمة، وتترك البشر في ركام من التعب، والتخلف، والصراع..."و سائل الاعلام".

المسيطر يعتبر نفسه أنه "المثال" و"العقل" وهو كل شيء... هو " فرعون" المتجدد في كل العصور... وتبقى مطامح هذا الإله المسؤولة ناقصة لا تقود الى تفاؤل إنساني ، أو الى إدراك للطبيعة البشرية المؤمنة بالحرية " متى استعبدتم الناس وقد خلقتهم أمهاتهم أحراراً".؟

الإنسان المسيطر، صورة بشعة في عالم ينشد الحرية و السعادة .

المستعمر لايهتم بتفاصيل حياة الأحرار، فهؤلاء أرقام خُلقوا لخدمته... إنه شيطان يحاور نفسه ولا مكان في ذهنه أن يكون إنساناً لمرة واحدة... والمؤسف أن بعض الكتب السماوية تعطي الأرض لمن ليس له أرض، وتحكّمه لكي يكون بطاشاً وذباحاً ومصادراً للإنسان، ويحق له أن يذبحه، ويقتل الأجنّة في بطون الأمهات ... الثورات التاريخية أصابت عندما رفعت شعاراتها ضد الظلم ، والقتل " ثورة سبارتاكوس" وثورة "الزنج" وثورة"القرامطة"... والثورات العالمية كالثورة "الفرنسية "... وبعض الهبّات العربية ... ومع ذلك فإن هناك شيئاً يستحق الذكر وهو قائم فوق أرضنا عنيت به "الأدب المقاوم " لدى العرب، والذي تجسّدَ ضد العثمانيين، والمستعمر الفرنسي، والبريطاني ... وصور ذلك تتجلى بنصاعتها وبأنوارها في الأدب الفلسطيني. وحصل ذلك ويحصل هذا منذ عام 1920 مروراً بالنكبة عام 1948 ويستمر الى ما شاء الله مادام المستعمر موجوداً، وما دام بشر يطالبون بهذا الحق العربي المقدّس.

وأقول أن مصطلح "الأدب المقاوم" باقٍ ولن ينتهي أو يزول لأنه أدب تتجسّدُ فيه إبداعات كثيرة ، لأنه أُخذ من الدموع والتشرد ... أُخذ من الوجع والتشتت...

ونحن اللبنانيين نعرف ما تعني كلمة المقاومة ... لأننا خبرنا ذلك بحروب فُرضت علينا ، فأنتجت المقاومة المسلحة و الكلمة الملتزمة الأبعاد الانسانية المتعددة والمتنوعة ..ذات المفاهيم العميقة والمتعمقة بالأرض وبحياة الإنسان.

ومصطلح " أدب المقاومة" هو مصطلح حديث جذّره الأديب الفلسطيني " غسان كنفاني"... إبتكره ليجسّد من خلاله مأساة شعب حُرم من أرضه و من الحياة، في ظل أبشع استعمار فوق الكرة الأرضية.

وقبل و أثناء وبعد " غسان كنفاني " هناك العشرات من المبدعين الفلسطينيين الذين التزموا بأدب المقاومة ومنهم على سبيل المثال لا الحصر : عبد الكريم الكرمي "ابو سلمى" ، وابراهيم طوقان، وفدوى طوقان، وهارون هاشم رشيد، وسميح القاسم، وتوفيق زياد، وسالم جبران، وخليل زبطان، ومعين بسيسو، وعصام العباسي، وراشد حسين... حنا ابو حنا- شكيب جهشان- عز الدين المناصرة – أحمد دحبور – خالد ابو خالد ... وغيرهم الكثير الكثير من الذين أبدعوا ورفعوا القضيّة الى مستوى عالمي وإنساني.

وأننا حتى الآن نسمع " يا عدو الشمس" و"هنا باقون" لسميح القاسم، و" سجّل أنا عربي" لمحمود درويش وغير ذلك الكثير من الإبداعات التي غناها الفنان " مارسيل خليفة ".

إن العمل الأدبي الملتزم والناجح والمعبر عن آلام أمة ومعاناة بشر، لايقل شجاعة أو قوّة عن عمل مقاوم يطلق رصاصة أو صاروخاً، لايقل أهمية من مقاوم يسهر الليل في أجواء باردة ليزرع عبوة تحيل المستعمر أشلاء...

الإنسان بطبعه مقاوم... يقاوم الأمراض وهو طفل صغير، يقاوم كل ما يشعر بأنه ضده في الحياة ، وضد تطلعاته الإنسانية ، وصورة تلك المقاومة تتجلى ب "اللغة" التي هي أداة التواصل ، والمواجهة والتصوير والإبداع. وإن الإنسان يستعملها ويستخدمها كعنصر مؤثر في الدفاع عن النفس. وهذه اللغة تحوّلت مع مرور الزمن الى أدب وشعر وخطابة.

الأدب المقاوم هو التعبير من خلال الكلمات (اللغة) التي استحالت نصاً ومنصة للدفاع عن الإنسان في معركته مع الآخر المعتدي. وفي هذا الصدد نقول:" إن الباحثين لم يتوصلوا حتى الآن الى تعريف شامل لأدب المقاومة "... ولكننا نقول: إن كل كلمة وكل نص، وقصيدة، وقصة، ورواية، ومقالة، وأغنية، وصورة، وموقف ثقافي وفكري وأدبي... في مواجهة المحتل الظالم وأعوانه هو عمل مقاوم، وأدب يستحق التسمية بالأدب المقاوم ... وأظن أن القضية الوطنية التحررية فرضت نفسها على التعريف نفسه.

هي وقفة لغوية إنسانية في وجه قطيع الذئاب الذي يمنع الحياة عن أبناء الحياة (غزة مثلاً والضفة)، ويسمم العشب الأخضر ، ويصادر الينابيع وجمال الجداول والسواقي (لبنان نموذجاً وسوريا والعراق)، ويقتل العصافير، ويشوّه الجمال...

الأدب المقاوم هو الكلام الراقي، اللغة المراقبة النابعة من القلب، ومن الفكر المسؤول، كلام لاقبح فيه ولا فساد... هو إنفجار وأسهم نارية تخرج من القلب والوجدان، لتسجّل حدثاً على مستوى الكون والعالم... هي لغة تنادي الأوائل وتمنعهم عن الرحيل وتدعوهم للبقاء فوق الأرض، قريبة من أجداث الآباء و الأجداد...

هي عشق، وهي أجمل من العشق، تمدّ ذراعيها الى الأصالة والنبل الإنساني، وهي ضد القتل والتهجير ومصادرة الحياة ، ودائماً شعارها : حرية الإنسان و العمل من أجل سعادة البشرية...

لغة المقاومة هي الصدق والعدل والحق، هي الروح الجميلة التي تهبّ علينا فتُدخِل النسيم بين المفاصل والعظام ، فتنعش الروح والوجدان.

هي حليب الأمومة الباقي في صدر الأرض، وهي البعد الذي يعيش بيننا ولا يغادر. وكيف أشك بما ضمَّنا من مآسينا أن يروح منّا ويذهب هدراً؟ ومن بين كلماته نسمع سليل السيوف والتحريض، وفي الوقت نفسه هي حلم الليل الذي يرسم لنا درب الكلمات المؤثرة والملتزمة. بقضية انسانية...

ومن المؤسف الإختلاف حول النص الإبداعي المقاوم وفي ذلك يعتبر البعض المتفرنجين، أن النص المقاوم هو النص الذي يدخل في الايديولوجيا، ويبتعد عن السمو والإبداع ... ويقول آخرون أن النص الإبداعي المقاوم هو في حد ذاته إبداعاً لأنه يعبر من السمو، ويقف في وجه الإستعمار والسيطرة (محمود درويش مثلاً) .

بالنهاية نقول :

أيها المقاتلون

أنا لن أقفل الباب في وجه القصيدة

هذا الخزامي بلدي

ورعشة الأرض بلدي

ونايات الرعيان بلدي

وهذه الطيور أمنياتي الكثيرة

لاتطلقوا النار عليها

ولاتقودوا المراكب للغرق...

يا أيها القاتلون...

الفراشات لنا

وكل قلب خفق

وعلامات اللقاء بقايا

من آثار أجدادي

ومن قال بأنّا: نفترق

في بلادي...

الأخضر ناحَ

وارتدت السماء أزرقاً

كالبياض... على وجه الصباح

الحبق...

أنا الآن أحاصر بالذئاب

قرب الينابيع والجمال

وهل نفترق

محالٌ...فالزعتر بلادي

و"الزوفا" بلادي

والأغنيات...

وهذا الشّبق

ولن تكون فلسطين رسالةً

في الهواء...
تضيع..
إذا احترق الورقْ